المحاضرة الثانية :

أهم العوامل و الظروف الممهدة لعلم الاجتماع و أهم الموضوعات التي يدرسها

تمهيد :

بعد أن تناولنا في المحاضرة السابقة مفهوم وتاريخ الفكر الاجتماعي، سنحاول من خلال هذه المحاضرة عرض أهم العوامل و الأسباب أو الظروف التي ساعدت في تأسيس علم الاجتماع، ربما تتعدد العوامل لكن سنحاول التركيز على ثلاث عوامل رئيسية ألا و هي : العوامل الفكرية و العوامل الاقتصادية و السياسية. بعد هده العوامل نشأ علم الاجتماع و حدد منهجه، و موضوعه الذي سوف نتطرق إليه من خلال عرض أهم مضامينه.

أولا : العوامل و الظروف الممهدة لنشأة علم الاجتماع

كشفت طبيعة الفكر الاجتماعي الذي ظهر مع البدايات الأولى لظهور المجتمعات البشرية عن مدى تطور هذا التفكير و توعيته نتيجة مجموعة الظروف و العوامل الاجتماعية و الاقتصادية التي وجدت في هذه المجتمعات، و هذا ما اتضح جليا في أنماط الفكر الاجتماعي الذي ظهر في أنماط الشرق القديم، أو التي ظهرت في الحضارة اليونانية أو التي تطورت بعد ذلك في العصور الوسطى، المسيحية و الاسلامية.

بمكن القول أن الأحداث و التغيرات المتلاحقة التي شهدتها المحتمعات الأوروبية- و على وجه الخصوص المجتمع الفرنسي، مع أواخر القرن الثامن عشر، قد هيأت الظروف الموضوعية المناسبة لانصراف الفلاسفة و المفكرين و دعاة الاصلاح الاهتمام بالشؤون المتعلقة بالحياة الاجتماعية للبشر، و علاقاتهم ببعضهم، و ما تفرزه تلك العلاقات من ظواهر اجتماعية.

من هنا يتضح أن هناك ثلاث عوامل أساسية ساهمت بشكل كبير في نشأة و تأسيس علم الاجتماع و هي : العوامل الفكرية – العوامل السياسية – العوامل الاقتصادية .

1- العوامل الفكرية :

من العوامل الفكرية المهمة التي ساعدت في نشأة علم الاجتماع بشكل واضح هو عصر النهضة الذي يعتبر تغير فكري ملحوظ في التفكير الفلسفي، ساعد على التخلي عن الأفكار التقليدية اللاهوتية ليحل محلها أفكار و معتقدات أكثر منطقية و عقلانية .

و للتوضيح أكثر يمكن تعريف عصر النهضة على أنه:" الحركة الواسعة النطاق التي قامت على تجديد الحضارة الأوروبية الغربية من القرن الرابع عشر حتى القرن السادس عشر، و بهده الحركة حل العالم الحديث محل عالم القرون الوسطى، و ندكر أن التطور الذي ارتسم في هدا العصر تناول الحياة المادية، و الحياة الاجتماعية و الحياة الفكرية.

لقد تعددت تسميات عصر النهضة إلى العديد من التسميات الأخرى و من المفاهيم الأخرى التي أطبقت على عصر النهضة هي عصر التنوير أو حركة التنوير " التي أثرت بشكل مباشر في ظهور علم الاجتماع و النظرية الاجتماعية، فهي حلقة محورية في حلقات التطورات التي مر بها علم الاجتماع، فقد شهد الفكر الانساني تغبرا ملحوظا في هده الفترة، حيث تم التخلي عن عدد من الأفكار و المعتقدات الراسخة التي يتعلق كثيرا منها بالحياة الاجتماعية و حلت محلها أفكار و معتقدات أخرى أثناء عصر التنوير ومن أبرز المفكرين الدين ارتبطوا بالفكر التنويري نجد "**شارل مونتسكيو**" **و** "**جان جاك روسو**" **(1712- 1778).**

تأثر المفكرون الذين عاصروا و حركة التنوير بتيارين فكريين هما فلسفة القرن السابع عشر، و العلم ، حيث ارتبطت فلسفة القرن السابع عشر بمفكرين أمثال رينيه ديكارت، "**توماس هوبز**" **و** "**جون لوك**" و تركزت جهودهم حول الوصول و الخروج بنسق كلي و عمومي و تجريدي من الأفكار التي تفضي إلى الفهم العقلي، و قد اتبع و سار على نفس الطرح المفكرون اللاحقون- الذين ارتبطو بالتنوير – مع بدل جهودا إضافية و جعل أفكارهم منبثقة من الواقع الفعلي بحيث حاولوا مزج البحث الإمبريقي بالتفكير العقلي.

يمكن القول بأن حركة التنوير كان هدفها فهم الحياة الاجتماعية بالاعتماد على العقل و البحث الميداني، فإذا كان العالم الطبيعي له قوانينه التي تحكمه فإن الظواهر الاجتماعية أيضا تخضع إلى

قوانين تحكمها و على المفكرين الفلاسفة اكتشافها من خلال الاعتماد على المنهج العلمي الذي يجمع بين الملاحظة و التجربة و العقل.

تشكل العوامل الفكرية التي تعتبر عامل أساسي من عوامل نشأة علم الاجتماع " مجموعة الآراء و الاتجاهات و الأفكار و الإيديولوجيات و المذاهب و التيارات النقدية و الراديكالية التي ظهرت في أوروبا خلال عصر التنوير و المراحل الأولى من العصر الحديث، حيث لعبت دورا كبيرا في تشكيل آراء و اتجاهات و نظريات علماء الاجتماع و تصوراتهم عند دراستهم للظواهر و المشكلات الاجتماعية، و تركت هده العوامل أثر بالغ الأهمية في تشكيل و بلورة الكثير من آراء و أفكار الباحثين في هدا المجال، و كدا تأثيرها في مختلف المذاهب و الايديوبوجيات التي ينتمون إليها، دون أن ننسى بأن العوامل الفكرية قد أسست لظهور العديد من مناهج و طرق و أساليب البحث الاجتماعي، و التي شكلت دعامات أساسية ساهمت في دراسة النظريات السوسيولوجية و تطويرها بغية دراسة و تشخيص الحياة الاجتماعية التي تزامنت مع ظهور المجتمع الصناعي الحديث.

كما لا ننسى ما شكلته طبيعة التغيرات الاجتماعية و الاقتصادية التي ظهرت في أوروبا و ظهور القوميات و الدعوة إلى السيطرة و تكوين المستعمرات في بلدان أخرى و ضرورة إتباع أساليب علمية لتحقيق المزيد من الاكتشافات الطبيعية و دراسة الظواهر الطبيعية بأكثر دقة وواقعية، و كذا ظهور العديد من المذاهب التي تدعو إلى تحرير العقل البشري و الدعوة إلى المزيد من حرية العمل، النقل و الاتصالات و كما كان هناك دور بالغ الأهمية لحركات الإصلاح الديني في حد ذاتها في تطور آراء و معتقدات و قيم رجال الدين في حد ذاتها في تطوير آراء و معتقدات و قيم رجال الدين الكنيسي بضرورة تبني أساليب التفكير العقلاني كمثال ذلك ما جاء من أفكار المذهب البروتستانتي و العمل على إعلاء منزلة كل من العقل و الحرية الفردية و التفكير العقلي الرشيد.

لقد كونت العوامل الفكرية إيديولوجيات و توجهات نحو المطالبة بالمزيد من الحرية، و الديمقراطية و الرغبة المستمرة في عمليات التغير و المساواة في العمل و الإنتاج و رأس المال، و زيادة تشكيل الوعي الطبقي هذا الأخير الذي أسس لظهور المعارضين و المؤيدين لكل من الطبقات العمالية و البورجوازية و الرأسمالية، فتغير النسق العقائدي و الفكري و برزت اتجاهات حديثة تماشت مع طبيعة المجتمع الصناعي الحديث.

2- العوامل الاقتصادية :

شهد القرن الثامن عشر مجموعة من العوامل الاقتصادية التي مهدت لظهور علم الاجتماع و غيره من العلوم الاجتماعية الأخرى، و من أهم هده العوامل قيام الثورة الصناعية في بريطانيا خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ثم ما لبثت و انتقلت بعد ذلك إلى العديد من الدول الأوروبية المجاورة و بقية دول العالم الحديث بعد دلك، كما أدت بعض العوامل الاقتصادية الأخرى إلى حدوث تغيرات متعددة على طبيعة البناءات و النظم الاجتماعية و السياسية و من أهم هده العوامل نمو المستعمرات و الصراع بين الدول الأوروبية من أجل تكوين ثروات اقتصادية كبيرة تتركز في السيطرة على موارد الطبيعة و المواد الخام التي جاءت بها الدول الأوروبية من دول الجنوب و كونت بموجبها ثروات اقتصادية كبيرة، و هيمنة سياسية و عسكرية لا تزال موجودة في دول المستعمرات حتى البدايات الأولى من القرن الحادي و العشرون.

و من التغيرات التي حدثت جراء الثورة الصناعية نجد أيضا" دراسة الآثار الناتجة عن تحول الطبقات العاملة الزراعية، و تركها العمل في القطاع الزراعي إلى العمل في المؤسسات و الشركات الصناعية الجديدة التي ظهرت في المدن أو في أطراف المجتمعات الريفية أو شبه الحضرية، كما ركزت تحليلات هؤلاء العلماء على دراسة الطبقة العاملة الصناعية التي ظهرت لأول مرة في أوروبا الغربية و النتائج المترتبة على ظهورها مثل مشكلة الأجور، و ظروف العمل، و طبيعة الإنتاج و الأرباح، و العلاقات الإنسانية، و مشكلات هده الطبقة مع الإدارة أو أصحاب رأس المال، و غير ذلك من مشكلات متعددة، كانت موضع اهتمام العديد من الرواد و الأوائل لعلم الاجتماع، بل كانت بمثابة الشغل الشاغل للموجهات النظرية و الإيديولوجية عامة، كما جاءت في تحليلات كارل ماركس حول الطبقة العمالية أو البروليتاريا.

يمكن القول بأنه " حدثت تطورات عديدة و مترابطة بلغت ذروتها في تحول الأفراد من القطاع الزراعي إلى العمل الصناعي، و ظهور الأنظمة البيروقراطية الاقتصادية الضخمة تتماشى مع و النسق الاقتصادي الرأسمالي الناشئ، و في خضم هده التحولات حققت الأقلية ربحا طائلا في حين عمل الأغلبية لساعات طويلة مقابل أجر زهيد، أدى ذلك إلى رد فعل مضاد لهذا النظام الصناعي الجديد و للرأسمالية بصفة عامة أدى في نهاية المطاف إلى محاولات للإطاحة بالنظام الرأسمالي من طرف حركات عمالية و حركات راديكالية."

لقد أثرت الثورة الصناعية على نشأة و ظهور الرأسمالية الغربية و أصبحت كل منهما من أهم الموجهات الأساسية للنظريات السوسيولوجية التقليدية، و التي جاءت في أفكار رواد هده النظريات الأوائل، و كانت كل من الثورة الصناعية و الرأسمالية، هي موضع الاهتمام الأول للاطار الإيديولوجي العام لعلم الاجتماع الكلاسيكي و علماؤه بصفة عامة.

3- العوامل السياسية :

إن ظهور علم الاجتماع و البدايات الأولى لنشأته ترجع إلى مجموعة من الأحداث الاجتماعية و السياسية و التاريخية التي مهدت بدورها لظهور المجتمع المجتمع الصناعي ذاته، و من أهم هده الأحداث المجتمعية، ظهور الثورات الثورات السياسية التي اجتاحت أوروبا الغربية، و جاءت على رأسها الثورة الفرنسية التي بدأت عام 1789، و التي تعتبر كما وصفها كثير من المؤرخين لتاريخ أوروبا الحديثة و العصر الحديث، بأنها أكبر حدث سياسي و اجتماعي في العصر الحديث بصورة عامة.

إن قيام الثورة الفرنسية لم يحدث من فراغ بقدر ما أثرت مجموعة آراء مفكري و فلاسفة عصر التنوير من التمهيد للقيام بهذه الثورة، و تغير النسق الفكري الذي ارتبط بنظريات الحق الطبيعي، التي أعطت لكل من رجال الدين أو أصحاب السلطة الدينية، أو نظريات الحق الطبيعي التي أعطيت بعد ذلك للحكام السياسيين، وكما يحلل الكثيرون لطبيعة الثورة الفرنسية أنها لم تكن ثورة سلمية بقدر ما كانت ثورة دموية وشهدت حرب عقائدية و فكرية و اجتماعية متعارضة، و لهدا ظهر علم الاجتماع كمطلب ضروري كغيره من العلوم الاجتماعية، التي تهتم بدراسة المشكلات الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية التي ظهرت في المجتمع الصناعي الحديث.

تكمن أهمية الثورة الفرنسية نتيجة لما أحدثته هده الثورة، كحدث اجتماعي و سياسي و اقتصادي و ثقافي عامة على طبيعة العلاقات الاجتماعية و السياسية بين الجماعات و النظم الاجتماعية ككل، فقد عملت هده الثورة للتمهيد لإعلان حقوق الإنسان و من أهمها حق العمل، و التعليم، و الانتخاب أو تغيير مفهوم الحرية بصورة عامة و شاملة، كما عملت هده الثورة على تغيير الإيديولوجيات القومية و المجتمعية و الأوروبية و العالمية بعد دلك، و لا سيما عند تحديد العلاقة بين الحكام و المحكومين أو بين أنصار السلطة السياسية و الدينية في نفس الوقت، و بالطبع لم تأت هده الثورة من فراغ بقدر ما جاءت نتيجة

لمجموعة من الإرهاصات الفكرية و الثقافية و الاقتصادية و الاجتماعية التي مهدت لها كثيرا من الآراء العامة التي طرحت خلال عصر النهضة أو التنوير أو الإصلاح و لا سيما في فرنسا و أوروبا الغربية.

ثانيا: موضوع علم الاجتماع

لقد تعددت المواضيع التي يدرسها علم الاجتماع من عالم إلى آخر،حيث نجد الرواد الأوائل لا يختلفون كثيرا عن آراء العلماء المعاصرون من حيث صياغتهم لموضوعات علم الاجتماع، و لا يمكن عرضها جميعا، لكن سنحاول عرض أهم الموضوعات التي يتفق حولها أغلب علماء الاجتماع و هي كالتالي:

1- التحليل السوسيولوجي:

- الثقافة الإنسانية و المجتمع.
- المنظور السوسيولوجي.
- المنهج العلمي في العلوم الاجتماعية.

2- الوحدات الأولية للحياة الاجتماعية:

- الأفعال و العلاقات الاجتماعية.
- الشخصية الفردية
- الجماعات و السلالات و الطبقات الاجتماعية.
- المجتمعات المحلية (الريفية و الحضرية)
- الهيئات و المنظمات
- السكان .
- المجتمع.

3- النظم الاجتماعية الأساسية:

- الأسرة و القرابة.
- النظام الاقتصادي.
- النظام السياسي و القانوني.
- النظام الديني.
- النظام التربوي و التعليمي.

- نظام الترويح و الدعاية.
- النظام الجمالي و التعبيري.

4- العمليات الاجتماعية الأساسية:

- التباين و الترتيب الطبقي.
- التعاون و التوافق و التمثيل.
- الصراع الطبقي.
- الاتصال و الرأي العام.
- التنشئة الاجتماعية.
- القيم الاجتماعية.
- الانحراف الاجتماعي و الجريمة و الانتحار.
- التكامل الاجتماعي.
- التغير الاجتماعي.

و عموما يمكن الإشارة إلى الأفكار الرئيسية التي تدور حولها الموضوعات السابقة لعلم الاجتماع سواء أكانوا من رواد العلم التقليديين أو المعاصرين:

1- **الجماعات الاجتماعية Social groups:** و تشمل دراسة الجماعات التي يتكون منها البشر، و طبيعة بناءاتها ووظائفها في المجتمع ككل.

2- **العمليات الاجتماعية Social processes:** و هي أنماط الأفعال الاجتماعية و أهدافها و تشمل هذه العمليات نماذج مختلفة مثل التعاون، التنافس، الصراع، التكيف و غيرها.

3- الثقافة Culture : و هي مجموعة العناصر المادية و اللامادية و النتاج العام للفكر و الحضارة الإنسانية و تشمل أنماط التفكير و العلوم و الفنون و الآداب و التكنولوجيا.

4- الشخصية Personality: و تشمل دراسة موضوع التفاعل و دراسة السلوك الفردي و الجماعي و نماذج العلاقات المتداخلة بين الأفراد، و كيفية تكوينها و تغييرها و تكيفها في المجتمع.

5- التغير Change: يعتبر هذا الموضوع هو جوهر اهتمام علماء الاجتماع، لأن التغير هو القانون الذي يفسر حياة المجتمعات و تطورها، و تشمل دراسة تغير جوانب الحياة الاجتماعية و بناءاتها و نظمها و مؤسساتها المختلفة.

خلاصة:

تتداخل العوامل المساعدة في نشأة علم الاجتماع، فلو تمعنا جيدا في هده العوامل الظروف سنرى لأنها حلقات متصلة ببعضها البعض، فلولا عصر التنوير أو بما يسمى أيضا عصر النهضة، لما كانت تلك الثورات السياسية خاصة الثورة الفرنسية، فحركة التنوير نادت بالتحرر الفكري و بالتالي التحرر من قيود رجال الكنيسة فأقاموا عليهم الثورة التي غيرت مجرى الحياة الاجتماعية، و في خضم كل هذا كان للثورة الصناعية أيضا دافعا إلى تغير الحياة الاجتماعية و ظهور العديد من المشكلات الاجتماعية، بسبب ظهور الآلة و تسريح العمال الذي خلق عدة ظواهر اجتماعية كالتشرد، الفقر، السرقة، تعاطي المخدرات..إلخ، زد على ذلك الوضعية المزرية التي يعيشها العامل داخل المصانع مقابل الأجر الزهيد، كلها عوامل دفعت بالمفكرين الفلاسفة إلى التفكير في علم يهتم بمثل هذه المشكلات، فكان علم الاجتماع الذي أسس على يد العالم الفرنسي أوغست كونت.

اتخذ علم الاجتماع عدة مواضيع مختلفة تمس جميع جوانب الحياة الاجتماعية، فقد كان لكل عالم اجتماع فكره و اتجاهه الخاص في دراسة المجتمعات، مثلا أوغست كونت و ايميل دوركايم كانوا من المحافظين الذين ينادون إلى الاستقرار و الثبات، أما كارل ماركس و فريديريك انجلز كانا من المفكرين الثوريين الذين يسعون إلى التغيير.

قائمة المراجع المعتمدة:

1- جاستون بوتول.تاريخ علم الاجتماع من الشرق إلى الغرب. ترجمة: غنيم عبدون، مراجعة جلال حسن صادق, د.ب: المؤسسة العربية للأنباء و النشر و التوزيع و الطباعة، د,ت

2- عبد الله محمد عبد الرحمان. النظرية في علم الاجتماع، النظرية الكلاسيكية. الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 2006

3- عبد الله محمد عبد الرحمان. علم الاجتماع النشأة و التطور. الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1999.

4- محمد الجوهري، أحمد زيان، محمود بدران، عدلي السمري، فاتن أحمد علي، مصطفى عبد الجواد. تاريخ الفكر الاجتماعي (الرواد).ط1. عمان الأردن: دار المسيرة، 2011.